الخليل بن أحمد الفراهيدي ومعجمه «العين»

د. منقور عبد الجليل
جامعة سيدي بلعباس

لقد نشأ البحث الصوتي في التراث العربي ضمن اهتمامات العلماء بالنص القرآني، تفسيرا وتأويلا وقراءة وترتيلا، ولذلك لا نعجب من كون معظم اللغويين والنحاة الأوائل كانوا من القراء كعمرو بن العلاء وعيسى بن عمر من أساتذة الخليل بن أحمد الفراهيدي. ولقد أشار هؤلاء إلى الحاجة لقيام علم يعني بالأصوات ويضع معايير علمية تغدو ضوابط للقراءة الصحيحة، وذلك لعوامل أهمّها :

1 ـ مشكلات تتعلق بنطق وتهجية بعض ألفاظ القرآن الكريم.

2 ـ اختلاف اللهجات العربية الذي كان سببا في تعدد المصاحف.

3 ـ اختلاط اللغة العربية بلهجات وألفاظ دخيلة كان وراء اللبس الذي جعل الأصيل من الألفاظ العربية يمتزج بالدخيل.

4 ـ اختلاف في نطق بعض أصوات اللغة من قبل الأعاجم والمولدين.

5 ـ حاجة الثقافة العربية الآخذة في التطور نتيجة لامتزاج الأعراق والأجناس إلى رصيد لغوي جديد لا يخرج عن أصالة اللفظ العربي.

إلاّ أن هذه الانشغالات لم تأخذ صورة العلم المؤسّس على الدراسة المنهجية إلاّ على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي المولود عام 100هـ والمتوفى عام 170هـ. وقد أشار إلى ذلك في مدخل معجمه «العين». يقول تلميذه الليث (ت180) : «كنت أصير إلى الخليل بن أحمد فقال لي يوما: لو أن إنسانا قصد وألف حروف : أ ب ت ث ... على ما أمثله،لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب، وتهيّأ له أصل لا يخرج عنه شيء البتة»[1] وبالفعل، وضع الخليل معجمه على نحو بديع، وصناعة فريدة، وقد ساعده على ذلك التميّز معرفته بعلم الرياضيات والموسيقى، خاصّة إذا علمنا أن ترتيبين للحروف كانا معروفين قبل الخليل: الترتيب الأبجدي الذي وضعت على أساسه اللغات السامية والترتيب الألف بائي الذي يكون نصر بن عاصم (ت 89هـ) قد وضعه أثناء عملية إعجامه لألفاظ القرآن الكريم.

إن الأساس العلمي الذي وضعت من خلاله تلك الترتيبات كان لاعتبارات لغوية، تعليمية، في حين أنّ الأساس الصوتي هو الذي استقر عليه الخليل في ترتيب حروف معجمه، بعد تدبّر واستقصاء لعملية النطق، واستثمارًا لمعارفه الموسيقية والرياضية والمنطقية، فوجد أن أدخل الحروف في النطق أولاها بالابتداء.

---

1 – العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي : تحقيق عبد الله درويش – ص 53 – بغداد 1967 .سليقية.

1 - مخارج الأصوات عند الخليل :

إن طريقة الخليل في تحديد المخرج الصوتي تنبني على عزل الحرف عن بنيته، ثم تبيّن صفة نطقه، وقد وضع الخليل لهذه العملية مصطلح «ذوق الحرف» وقد نقله عنه «ابن جني» «ت392» في كتابه «سر صناعة الإعراب» وفصّله على نحو كبير مبيّنا مزاياه في نطق الحروف وتحديد مخرجها[2]. ونجد في كتاب سيبويه إشارات مهمة للكيفية التي أبدع بها الخليل طريقة نطق الحرف وذوقه، مصححا في الوقت ذاته ما خاله العارفون باللغة أنّه هو الصواب في تهجية الحرف العربي، ينقل سيبويه حوارًا دار بين الخليل وبعض العارفين باللغة فيقول :«قال الخليل يوما وقد سأل أصحابه كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في «لك» والكاف التي في «مالك»، والباء التي في «ضرب» فقيل له نقول: باء،كاف. فقال إنّما جئتم بالاسم ولم تلفظوا الحرف، فقال: كه، به. فقلنا لم ألحقت الهاء. قال رأيتهم قالوا:عه، فألحقوا «هاء» حتى صيروها يُستطاع الكلام بها، لأنه لا يلفظ بحرف فإن وصلت قلت : كَ، تَ ... كما قالوا: ع ِ يا فتى فهذه طريقة كل حرف كان متحركا[3].

هذه الطريقة الصوتية في نطق الحروف بيّنها الخليل في مقدمة كتابه «العين» إلا أنه لاحظ أن تحريك الحرف يُذهب كثيرا بالمخرج الصوتي الصحيح الذي يُصدره ولذلك عدّل من تلك الطريقة إلى تسكين

2 – أنظر ذلك في ج.1 – ص6 و ص7 . دار الكتب العلمية – لبنان – 1988 .

3 – الكتاب –ج .3– ص 320. تحقيق عبد السلام هارون. دار الكتاب العربي – لبنان 1988 .

الحرف، وقد نقل كذلك تلميذه سيبويه حوارا حول هذه القضية حيث قال: «سأل أصحابه قائلا:» كيف تلفظون بالحرف الساكن نحو ياء «غلامي» وباء «اضرب» ودال «قد» فأجابوا بنحو ما أجابوا في المرة الأولى. فقال أقول: أَبْ،أَيْ،أَدْ، فألحق ألفاً موصولة، قال كذلك أراهم صنعوا بالساكن[4].

فكان الخليل في ترتيبه لوحدات معجمه«العين» يفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف نحو «أَبْ،أَتْ... وقد استمر على هذه الطريقة حتّى وصل، كما قال تلميذه «الليث» إلى الأرفع فالأرفع حتى أتى على آخرها وهو حرف «الميم».

2 - عملية تصنيف الأصوات:

لقد اعتمد الخليل بن أحمد مصطلح «الصّحاح» كوصف للحروف الصوامت، وماعداها فهي حروف صوائت، وقد وضع الخليل معيارا للتفريق بين النوعين من الحروف هو: إثبات المخرج أو موضع النطق للصوامت، وخلو الصوائت من ذلك. وهو ما توصّل إليه علماء الأصوات المحدثون في حديثهم عن اعتراض مجرى الهواء مع الصامت، وعدم اعتراضه مع الصائت. يقول الخليل في معجمه العين: «في العربية تسعة وعشرون حرفًا، منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومخارج، وأربعة هوائية هي: الواو،والياء، والألف اللينة والهمزة» [5].

4- المصدر السابق ج .3، ص 321 .

5 - العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي : ص 64 - المحقق السابق .

وما تجدر الإشارة إليه أن الخليل كان يدرك الفرق بين الحرف والصوت، فقد يكون الحرف عدة أصوات أو فونامات بالاصطلاح اللسانياتي الحديث، وقد أشار الخليل في حديثه عن ذلك فيما سماه الحيز والمخرج؛ فالحيز قد يحوي أكثر من صوت للحرف الواحد بحسب الكمية الصوتية، أما المخرج فلا يصدر منه إلا صوت واحد أو أصوات مختلفة غير متجانسة ...

وبذلك فالخليل لم يصنف الحروف طبقا لمخرجها فقط، وإنما كذلك طبقا للحيز أو الفراغ الذي يشغله الصوت في الحلق والفم، فمن الأصوات ما يصدر من حيز واحد مثل الدال والطاء والتاء، والصاد والزاي والسين، ومن الأصوات ما لا حيز لها مثل الهمزة وقد قال عنها الخليل : «والهمزة في الهواء، لم يكن لها حيز تنسب إليه.»[6].

وبناء على ذلك جاء تصنيف الأصوات على النحو الآتي- عند الخليل- :

المخرج	الصوت
- أقصى الحلق	← الهمزة
- الحلق	← العين، الحاء، الهاء، الخاء، الغين.
- اللهاة	← القاف، الكاف.
- شجر الفم	← الجيم، الشين، الضاد.
- أسلة اللسان	← الصاد، السين، الزاي.

6 - المصدر السابق - ص 65 .

- النطح ← الطاء، التاء، الدال.
- اللثة ← الظاء، الذال.
- ذلق اللسان ← الراء، اللام، النون.
- الشفة ← الفاء، الباء، الميم.[7]

وبما أن الخليل كان هدفه هو وضع معجم على ترتيب أصواتي علمي لمعرفة خصائص البناء الصوتي للكلمة العربية، ويميّز بالتالي بين المستعمل والمهمل فيها، والأصيل والدخيل من الكلمات، فقد وضع الخليل تصنيفا آخر، مقدما تعليلات صوتية لعدم الابتداء بالهمزة أو الهاء، منتقلا إلى العين لأنها أنصع الحروف والتصنيف الذي استقر عليه الخليل في معجمه العين :

1 – العين ، الحاء ، الهاء ، الخاء ، الغين .

2 – القاف ، الكاف .

3 – الجيم ، الشين ، الضاد .

4 – الصاد ، السين ، الزاي .

5 – الطاء ، الدال ، التاء .

6 – الطاء ، الثاء ، الذال .

7 – الراء ، اللام ، النون .

8 – الفاء ، الباء ، الميم .

9 – الواو ، الألف ، الياء ، الهمزة .

7 – المصدر السابق – ص 53 ، ص 57 ، ص 58 ، ص 65 .

3 ـ المعايير الفونولوجية عند الخليل :

لقد لاحظ الخليل بن أحمد الفراهيدي أن تقارب المخرج بين الحروف، من العلل المانعة لدخول فوينمين من حيّز واحد في بناء واحدٍ وذلك تبعا للمعايير الآتية :-

أ - العين والحاء لا يجتمعان في بناء واحد إلا في النعت (حيعل) .

ب - العين مع الغين، والهاء مع الحاء، لا يجتمعان .

ج - القاف مع الكاف .

د - القاف مع الجيم لا يجتمعان إلا بفصل لازم .

هـ - الكاف مع الضاد إلا بوجود فاصل .

هذه المعايير الفونولوجية تضاف إلى تلك المعايير التي بيّن من خلالها الخليل المهمل في اللغة على مستوى البنية المورفولوجية للكلمة، استنبط الخليل معيارا جديدا يحتكم إلى مبدا «الذلاقة والشفوية» كصفات للأصوات في الكلمة العربية الأصيلة «ذات البناء الرباعي والخماسي يقول الخليل: «إن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية، ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان، أو فوق ذلك، فاعلم أنّ تلك الكلمة محدثة، مبتدعة، ليست من كلام العرب» .[8]

إن اقتصار الخليل على الأصيل في الأبنية العربية، من خلال معيار الذلاقة، قد كان أساس العملية التي سيحصي من خلالها الكلمات

8 - المصدر السابق - ص 58

المستعملة والكلمات المهملة عبر نظام «التقليبات». وهو ذو بعد رياضي إحصائي، يشتغل فقط على تركيب الكلمات من الصوامت، وربط تقليباتها واحتمالاتها بالأصل الثابت في الاستعمال العربي وبناء على ذلك رصد الخليل – نظريا – التقليبات الآتية :

1 – **الثنائي :** ينقلب على وجهين .

2 – **الثلاثي :** ينقلب على ستة أوجه .

3 – **الرباعي :** ينقلب على أربعة وعشرين وجها .

4 – **الخماسي :** ينقلب على مائة وعشرين وجها .

والثلاثي عند الخليل هو الثلاثي الصحيح الخالي من حروف اللين .

أمّا الرباعي فيقسمه الخليل إلى قسمين طبقا لقانون «الذلاقة» :

1 – الرباعي المنبسط الذي لا يخلو بناؤه من حروف الذلق .

2 – الرباعي المنبسط الذي يخلو بناؤه من حروف الذلق .

ومصطلح «المنبسط» أطلقه الخليل على البناء الرباعي المضعّف مثل: زلزل، دمدم.

أمّا الرباعي الخالي من حروف الذلق فيقسمه الخليل إلى قسمين :

1 – **الحكاية المؤلفة :** وهو الرباعي الذي يكون حرف صدره موافقا لحرف صدر ما ضم إليه في عجزه مثل : دهدق المؤلفة من (دهـ + دق) و(زهزق) المؤلفة من (زهـ + زق). وهذا التأليف من أبنية العرب.

وباعتبار هذا المعيار فقد ردّ الخليل كثيرا من الأبنية ولم يلحقها بأبنية العـرب مثل (الهعخع) [9] لسببين :

أ - لأنها ليست حكاية مؤلفة وإنما هي اسم .

ب - لأنّ حرف الخاء وقع بعد حرف العين، ولم يسمع هذا عن العرب .

2 - الحكاية المضعّفة : وهو البناء الذي يشبه حرف صدره حرف عجزه مثل :

صلصل ، زلزل . المكوّنان من : صل + صل و زل + زل .

ويرده الخليل إلى أصله الثنائي .

4 - نظام التقليبات عند الخليل :

هو نظام رياضي منطقي قائم على مبدأ الاحتمالات النظرية ومبدأ التوزيع الفوينمي الذي يعمل على تغيير مواقع الفوينمات في البناء الواحد : بحيث تتكون كلمتان مختلفتان - في البناء الثنائي - كل منهما ذات دلالة جديدة من الفوينمات نفسها، ولكن بتوزيع مختلف.

بهذه المعايير وضع الخليل منهجه المعجمي متبعا المراحل الآتية :

أ - تحديد موقع الصوت فسيولوجيا في جهاز النطق طبقا لاتجاه هواء الزفير.

9 - يقال أنّه نبات .

ب – تحديد المخارج والأحياز لمعرفة المستعمل من الأبنية و المهمل.

ج – تقليب صوامت الكلمة لمعرفة المهمل والمستعمل طبقا لمعيار الدلالة.

د – تقسيم المعجم إلى أبواب طبقا للحرف الأوّل من حيث المخرج.

5 – طريقة الخليل في شرح المعنى :

أ – الشرح بالضد .

ب – الشرح بالمغايرة مثل: امرأة عجماء: نيّة العجمة وصلاة عجماء: كل صلاة لا يقرأ فيها .

ج – الشرح بكلمة واحدة .

د –الشرح بالتلازم : وهو ورود الكلمة المراد شرحها مع كلمة أخرى تلازمها. وهو المعروف في علم الدلالة بـ الحقل السنتيجماتي .

هـ – الشرح بالسياق.

و – الشرح بسؤال أهل اللغة: «قلت لأبي الدُقيش : ما العَصَدُ. قال: تقليبك العصيدة في الطنجير بالمعصدة» [10]

6 – طريقة البحث عن «كلمة» في معجم العين :

1 – معرفة ترتيب حروف المعجم عند الخليل

ع ح هـ خ غ – ق ك – ج ش ض – ص س ز– ط د ت – د ل ن – ف ب م – و أ ي ء .

10 – المصدر السابق – ج1 – ص 190 .

2 – تجريد الكلمة من الزوائد وردّ الجمع إلى المفرد .

3 – ردّ الكلمة التي فيها إعلال إلى أصله (عطية مثلا : يبحث عنها في باب (ع ط و)

4 – الترتيب يكون حسب الحرف الأسبق في المخرج . فكلمة (لهج) بعد إعادة الترتيب تصبح (هـ ج ل) أي ترد إلى باب الثلاثي من حروف (الهاء والجيم واللام) .

5 – في البناء المضعّف يُزال التضعيف وترد الكلمة إلى أصلها الثلاثي أو الثنائي : صلصل = صل ، مدّ = مدد .

ثم يعاد الترتيب حسب المخارج الصوتية .

7 – أثر الخليل في الدراسات الصوتية والمعاجمية :

أثرت طريقة الخليل في وضع المعجم في الصناعة المعاجمية بعده فقد ألف على سمته كثير من اللغويين معاجمهم مثل :

معجم البارع – لأبي عالي القالي . ت 356.

ومعجم تهذيب اللغة – للأزهري ت 370.

ومعجم المحكم لأبن سيده ت 458.

وكذلك طريقة الخليل في شرح المعنى لازالت معتمدة في المعاجم الحديثة .

فكرة التقليبات من أكثر الأفكار الناجحة التي وفّرت رصيدا هائلا من الكلمات في اللغة العربية، وقد استثمرها بعده ابن جنى في ما سمّاه بالاشتقاق الأكبر...

ملاحظة :

لمزيد من التوسّع ينظر كتاب :

- مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي - تأليف : حلمي خليل . دارا المعرفة الجامعية - الاسكندرية - 2003 - مصر .
- المعجم العربي : نشأته وتطوره - تأليف :حسين نصّار مكتبة مصر - القاهرة - 1968 .
- علم اللغة وصناعة المعاجم : تأليف :علي القاسمي . مطابع جامعة الملك سعود الرياض- ط.2 - 1991 .